

الثورة والأ نموذج الحزب

بقلم غالب هلسا

يضاف الى ذلك الاهتمام العجيب بام كلثوم الذي لا يدعنه اي سند من الفن او النوق الجمالي . وقد فامت اخر ساعة ببذل جهود كبيرة في تأكيد موضة ام كلثوم . فقبل ان تصدر عددا خاصا عنها اخذت تعد قراءها بمفاجأة مذهلة ، حدث لا يمكن تصديقه الخ... ثم اتت المفاجأة .. لقد ظل مراسلها - كما تقول المجلة - ليل نهار ولمدة اربعة اشهر يترصد ام كلثوم لينال حديثا منها . وقد كان . اذ اقنعها بانه يحمل رسالة لها من مهندس ايطالي . وتمت المقابلة في جو من الفزع والرعب ، اذ كان المراسل ينتظر في كل لحظة ان تطلق ام كلثوم كلابها المدربة عليه فتنهش احشائه وتمزقه اربا .

وبعد هذه الجهود المصنية وجه اليها اسئلة مثل هل ترغب في تحويل بيتها الى متحف ؟ فردت انها لا ترغب في ذلك ، وعن رأيها في الشعر الجديد فردت انها تستطيع - لو ارادت - ان تؤلف خيرا منه . واسئلة اخرى من هذا المستوى .

اما الظاهرة الثانية وهي انتشار الفوضى الفكرية فيكفي ان نلاحظ انه في فترة من الفترات كانت مجلات وزارة الثقافة تشن هجوما متصلا على الفكر الاشتراكي وعلى مشروعات الحكومة لتحديد النسل مثلا . ورافق ذلك هجوم على كل محاولة للتفاعل مع الفكر العالمي ، ويكفي هنا ان نستشهد ببيان لجنة الشعر التي اصدرت تحريما لكل شعر يستفيد من الاشكال الفنية الاجنبية او التعبيرات المسيحية الخ... بل وصل الحد الى محاربة الفكرة العربية على اعتبار انها نتيجة لمخطط استعماري للقضاء على الخلافة التركية .

يرافق هذا اجتهادات غريبة في تفسير الاشتراكية العربية واعتبارها امتدادا للفكر البراجماتي ، اي الفلسفة الرسمية للرأسمالية الغربية ، وان الميثاق عندما يعلن عن ضرورة اثناء النظرية بالممارسة العملية وعن ضرورة الاسترشاد بالنظرية عند الممارسة فالميثاق يضع الاشتراكية العربية في موضع الرفض النهائي للفلسفة الماركسية .

ويرى الدكتور زكي نجيب محمود ، رئيس تحرير مجلة الفكر المعاصر ، ان خطيئة الماركسية الكبرى هو اعتقادها ان الآلات تفرز الافكار تلقائيا . ثم يتساءل : ماذا يحدث لو قامت حرب ذرية فاهنت العلماء والفنيين وكتب العلم ؟ ويجيب : ستتهدم الحضارة بدون شك . وبهذا الاسلوب البسيط يقنعنا الدكتور زكي نجيب محمود بخطأ الماركسية . اما كيف توصل الدكتور الى اعتبار ان فكرة ماركس عن الاساس الاقتصادي تعني ان الآلات هي التي تفرز جميع الافكار فذلك امر ما زال في طي الكتمان . يضاف الى هذا ، ان فكرة الحتمية الماركسية كما عرضها الدكتور هي الفكرة نفسها التي خاض ضدها ماركس واحدة من اعنف معاركه وتعني بها هجومه على مادية فيورباخ . كما ان القضية الاساسية التي كان يختلف فيها لينين مع المنشفيكهي اصرار لينين على ان الحتمية التاريخية لا تتحقق تلقائيا بل من خلال وعي الانسان وارادته . وهذا هو موضوع كتابه « ما العمل ؟ » .

وعلى كل فربما كان الدكتور يتكلم عن ماركسية اخرى لم نعرفها بعد وهو الذي امضى ما ينيف على اربعين عاما في دراسة الفلسفة وفي البحث عن مجاهلها العويصة الغامضة ..

واذا انتقلنا الى النقطة الثالثة وهي محاولة اليمين - سواء بحسن او سوء نية - عزل الثورة وتجميدها فاننا نلاحظ ان ذلك يتم من خلال تحمس فائق للوضع وللثورة . ان الهدف وراء ذلك هو تحويل فكرة

في مقال سابق حاولنا ان نحدد الملامح العامة للانموذج الذي خلقته الثورة المصرية وان نشرح الظروف التي ادت الى خلقه وابعازه . ويمكن ان نلخص ما قلناه حول هذا الموضوع ان ايدولوجيته هي ايدولوجية البورجوازي الصغير الذي يعتقد ان العمل من اجل المصلحة الخاصة دون قيود او مراعاة للاخرين هو يد الله الخفية التي تحقق الرخاء والتقدم ، وان المجتمع الصحي هو ذلك الذي يدعو الى العودة للنظام الطبيعي . وهذا معناه - في هذه الحالة - وضع اخلاقيات ومثل البورجوازي الصغير غرائز حيوية يؤدي تجاهلها الى هدم البنيان الاجتماعي .

كما قلنا ايضا ان افكار هذا الانموذج هي بعث لايدولوجية البورجوازية الكلاسيكية . كما اشرنا الى ان تطلعات هذا الانموذج اصبحت تتعارض مع مسار الثورة لتعارض مصلحته مع قيام ملكية عامة .

ان ضرورة وجود انموذج ثوري تنبع من دينامية الظروف الجديدة ، اي ان المجتمع قد انتظم بطريقة جعلت وجود الثوري وبالتالي قيام تنظيم سياسي امرا لا يمكن تأجيله . فخطر سيطرة اليمين السياسي وتزايد قوة الطبقات العليا وسيطرتها قائم في حالة استمرار غياب قوى الشعب الحقيقية عن المسرح السياسي .

ان اختفاء التنظيم السياسي القائد قد ادى الى ظواهر خطيرة ، تقتصر على ذكر ثلاثة منها : ١ - اتجاه طاقات التجمع الشعبي الى مسارب ضارة . ٢ - نشوء فوضى فكرية تضيق في وسطها معالم النظرية الثورية . ٣ - بروز اتجاهات يمينية تهدف الى تجميد الثورة وعزلها .

بالنسبة للنقطة الاولى ، يكفي ان نراقب الحماس الضخم والاهتمام الكبير الذي تشيره كرة القدم . ان اقل مبارياتها عبارة عن مهرجان شعبي هائل ، والحماس لها يفوق كثيرا الحماس الذي يمكن ان تشيره اكبر المعارك السياسية او الاجتماعية . كما تخصص لها الصحف اليومية عددا من صفحاتها وملاحق اسبوعية خاصة .

ومن الغريب ان الكتاب اليساريين قد شاركوا بفعالية كبيرة في تأجيل هذا الحماس . فمنذ وقت قريب اصدرت مجلة اخر ساعة التي يرأس تحريرها الكاتب اليساري صلاح حافظ ويعمل فيها كثير من اليساريين عددا خاصا عن كرة القدم .

افتتح صلاح حافظ العدد بقوله ان الحماس للكرة ظاهرة صحية وماترة من مآثر الثورة التي يجب ان نفخر بها . فالمتمسك للكرة يشجع في العادة ناديا معيننا مشتركا في ذلك مع عشرات الالاف من المشجعين . وذلك خير من التمسك للاب او العائلة او حتى القرية . اي بكلمة اخرى ، فانه كلما ازداد عدد التمسكين لشيء مما ، ازدادت الصفة التقدمية لمثل هذا الحماس .

وهكذا فلا خيار للشباب في مجتمع اشتراكي بين الحماس للكرة او الحماس لافراد العائلة . ان المسألة لتبدو مفضحة حقا عندهم انتدكر ان ذلك يحدث في بلد يبني نفسه ويحتاج الى كل قدراته لجرد توفير الطالب الضرورية للشعب وهو في الوقت ذاته يواجه تحديات ضخمة في الداخل والخارج ، وان يكون مثل هذا التركيز على تسليح لا يمكن ان تشارك في حل مشكلاته الاقتصادية ولا تنمية قدراته العقلية بل تحيله الى مجرد تفاهة .

الاشتراكية الى قشرة خارجية خالية من كل مضمون حقيقي حتى تصبح في النهاية اداة في يد الرجعية . ويتضح ذلك في محاولة سلب الثورة اقوى اسلحتها مثل كونها صديقة للاشتركية العالمية ، واتجاهها العربي وتضامنها مع الدول الافريقية الاسيوية ودول اميركا اللاتينية، ومناصرتها لحركات التحرير .

ومن الامور ذات الدلالة ان هذا الاتجاه لا يجد وسيلة يتكئ عليها سوى الخداع والتفاهق . فالهجوم على اتجاه مصر العربي ينتشر وراء الدعوة التالية : ان الصعوبات التي تواجهها مصر نتيجة للخطة الاقتصادية للتنمية ولتوسيع قطاعات الخدمات والتأمينات والعمالة وبسبب عدم كفاءة بعض الاجهزة التنفيذية ، تعزى هذه المصاعب الى اتجاه مصر العربي . اي ان الهجوم على الاتجاه العربي يهدف الى حماية الشكل البيروقراطي للحكم ومحاربة الديمقراطية في مجالاتها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية .

كما تبدو اتجاهات اخرى في المستوى نفسه من الخداع كوضع الاتجاه العربي ضد الفكر الاسلامي ، واختلاق تعارض مفشل بين فكرة عدم الانحياز وفكرة التضامن الاسيوي الافريقي ، والدعوة الى عزلة مصر عن الكفاح العربي والافريقي باظهار التحمس لمرآة الحضارة المصرية الخ...

ان هذا يتطلب تحديدا وحسما . ولكن هل يكون ذلك باسكات جميع الاصوات المعارضة ؟

اعتقد ان علينا في مواجهة اليمين ان نفرق بين امرين :

الاول : ان الجمهورية العربية المتحدة قد اختارت طريق البناء الاشتراكي في الداخل وسياستها المعروفة في الخارج . وهذا الاختيار مدعم بتمبيره عن مصالح الشعب الحقيقية وبقوة الدولة . ولذا تصبح اية محاولة من جانب الرجعية لاستعمال العنف في تفسير الوضع امرا يجب ان يقاوم باقصى العنف والحزم . ان بعض عناصر اليمين ستحاول باستمرار تنفيذ مآربها من خلال الاتصال بالمستعمرين والتآمر معهم او باللجوء الى الارهاب ، وهذا امر يجب ان تستعمل فيه الشدة .

الثاني : ان الفكر اليميني ليس مجرد موقف تتخذه الفئات الرجعية للدفاع عن مصالحها وانما ايدولوجية توجد اثارها بين كل فئات الشعب وطبقاته . وتستمد هذه الايدولوجية غذاءها من انخفاض مستوى الوعي السياسي ، تراث التخلف الطويل ، الانتاج الحرفي والملكية الصغيرة ، تدني المستوى الثقافي ، حداثة الاسلوب العلمي الخ... كما تتغذى هذه الايدولوجية ببعض الظواهر الجديدة كالمعاب التي تنشأ كنتيجة للتحويل والتطور السريعين وما يؤدي اليه ذلك من قلق نفسي ، عدم التوافق - في كثير من الاحيان - بين سياسة الحكومة وبين التطبيق الذي يتم من خلال اجهزة لم تكييف بعد للظروف الجديدة، خروج المرأة الى العمل ، الخ... واثار هذه الظواهر تكاد تشمل الجميع . فلهذا يصح استعمال العنف ضد الفكر اليميني مساويا للقيام بحملة قمع رهيبه ضد اوسع جماهير الشعب بلا مبرر .

ولكن محاربة فكر اليمين يظلهذا لا لعزله فكريا وسياسيا فحسب بل لان ذلك جزء اصيل وهام من مهمة نشر الوعي الاشتراكي ومن اعطاء الاشتراكية طابعها الخاص والمميز في بلد مثل الجمهورية العربية المتحدة . ان التوعية الاشتراكية ليست مواعظ تلقى ولكنها تتم من خلال ادخالها كعنصر اساسي في كفاح الجماهير اليومي ، ومن اجل الديمقراطية باوسع اشكالها والتصنيع . وبمعنى اخر يجب ان تنشر التوعية الاشتراكية من خلال التجربة اليومية للشعب .

وبجانب نشر الوعي الاشتراكي من خلال المواجهة المستمرة لمشكلات الحياة اليومية ومن خلال ربط المظاهر الصغيرة والمنعزلة لقضايا المجتمع الكبرى ، بجانب هذا يجب ان يكون للاشتركية فكرا المميز الذي يستطيع ان يكشف كل انحراف على المستويين النظري والعملي ويقدمه من خلال الاقتاع والتوعية .

ان ذلك مستحيل دون قيام تنظيم سياسي ثوري .

ولكن ما هو هذا التنظيم ، ما هو دوره وحيدوده ، وما هي علاقته بالسلطة التنفيذية ؟

عندما تطرح مشكلة الكيفية التي ينبغي اتباعها لتكوين تنظيم سياسي

واختيار ملاكات قيادية فان التأكيد يتركز على فكرتين رئيسيتين: الاولى، ان تسلم قوة عسكرية للحكم دون الارتباط بحزب سياسي يجعل اختيار القيادات الثورية شديدا الصعوبة ، اذ يصعب التمييز بين الثوريين الحقيقيين وبين الانتهازيين ما دام ادعاء الثورة تجارة مريحة. والثانية عدم الفصل بين مفهوم التنظيم السياسي وبين المسؤولية التنفيذية ، فيصبح معنى الحاجة الى تنظيم سياسي مساويا لمعنى الاحتياج الى موظفين نزهاء .

بالنسبة للنقطة الاولى ، ان وضع المسألة بهذا الشكل ليس نهائيا . فتسلم حزب ثوري للسلطة ليس ضمانا كافية لاستمرار وضع ثوري . وبامكاننا ان نعدد الكثير من الامثلة حيث تسلمت السلطة احزابا وطنية او ثورية ثم تحولت الى بيروقراطية تكبح جماح كل تقدم . كما انه يمكن ان نشهد تكون قوى ثورية تخلقها او تتناهاها السلطة القائمة . فيحدث مثلا ان تتولى الحكم سلطة وطنية فتواجه صراعا اجتماعيا وسياسيا في الداخل بين مختلف القوى ومن خلال اتخاذها احد جوانب هذا الصراع تتحدد صفاتها المستقبلية ، فاما ان تتحاذ الى جانب التقدم او تتحاذ الى جانب الرجعية .

اما فيما يتعلق بالنقطة الاخرى ، اي عدم الفصل بين مهمة التنظيم السياسي والموظف النزيه ، فهذا يتطلب شرح الاسس التي تقوم عليها العلاقة بين الحزب الثوري والحكومة الثورية مستفيدين في ذلك من تجارب البلدان الاخرى .

بامكاننا ان نلاحظ ، بعد مراجعة العديد من تجارب البلدان الاخرى ، انه عندما يتحول الحزب الثوري الى حكومة ثورية فان الاثنين يسيران في اتجاه فقدان توريتهما . اي انه عندما تتحول الاجهزة السياسية الى اجهزة وظيفية ويتركز دور التنظيم السياسي في ادارة شؤون الدولة فانه يفقد قدرته على النظرة الشاملة . كما تتحول صلته بالجماهير من ارتباط مباشر متفاعل الى اخر يقوم على الالتزام والقسر بواسطة اجهزة السلطة التنفيذية . وبهذا تنتهي اهم علاقة بين القيادة السياسية والشعب ، ونعني بها حرية الاختيار التي جعلت الجماهير الشعبية تسير طوعا وراء القيادة السياسية وتدعمها ، وتستبدل ذلك بعلاقة تقوم على قوة القانون . وهذا يجعل الامور تسير في الظاهر بيسر وسهولة . الا انه مع مضي الزمن تحدث فجوة بين الجماهير والقيادة السياسية ، تؤدي بدورها الى اللامبالاة واختفاء المبادرة والحماس بين صفوف الشعوب ، فتجد السلطة نفسها مضطرة ازاء هذا الى الاستعاضة بأسلوب الاغراء المادي والاثارة المنعزلة من ناحية والى تضخيم وتوسيع جهاز الدولة القمعي والمراقب الى اقصى حد من ناحية اخرى .

ما هو اثر مثل هذا الوضع على السلطة التنفيذية ؟ ان الاجهزة الحكومية تفقد قدرا كبيرا من كفاءتها . ويصبح الماضي السياسي جواز مرور لتسلم مراكز الدولة العليا وتفسير الكفاءة والخبرة الى المحل الثاني . كما تضعف الرقابة الشعبية والسياسية الى اقصى حد لان جهاز هذه الرقابة يصبح هو الخصم والحكم . بالاضافة الى هذا ، فان السلطة التنفيذية تكتسب مكانة مرفهة وتمتالية لانها تصيف اليانفسها امجاد الحزب الثورية وماضيه السياسي المحاط بجو من البطولات الاسطورية . لهذا يصبح توجيه النقد الى الحكومة تهجما على الثورة وعلى اسماء احيطت بما يشبه القداسة . وهكذا يتحول الجهاز التنفيذي للسلطة من اداة شعبية في خدمة اهداف الثورة الى هيئة لها قداسة . كما يصحح الحزب اداة في يد الحكومة . اذ تنتقل خير عناصر القيادة السياسية الى الحكومة لتباشر مهامها تنفيذية وتفقد هي - وبالتالي التنظيم السياسي - فرصة وقسرة القيسادة الشعبية . وينتهي التنظيم الى كونه مجرد احد الاجهزة الوظيفية للحكومة . الم نسمع كثيرا عن احزاب تقدمية وثورية تحولت في النهاية الى اجهزة تطليل وتزوير للسلطة والى اجهزة بوليسية تخنق كل مبادرة شعبية؟ ثم تأتي الخطوة الاخيرة عندما تخلق الاجهزة التنفيذية نوعا من الاستقلال الخاص بها ، وتمنح نفسها شيئا شيئا امتيازات الطبقات المستقلة ، وتقف عائقا في وجه اي تغيير من شأنه ان يضعف سلطانها - **النتمة على الصفحة ٦٢** -

انهار السلك

وينصب الدجى كالقار في احداقك الظمأى

الى النور

الى ساقين تنطلقان في قوه

الى غيلان في جيکور ينتظر

الى الدنيا التي احببتها غنوه

الى خطوه

وينصب الدجى تيهها وابعادا

وانهارا من الشلل

سريرا يكتم البلوى .. واصفادا

وتغمض .. توصلد الابواب .. تفلق ايما كوه

فلا نور .. ولا ساقان .. لا غيلان .. لا خطوه

دجى موتى .. يفح كالف ثعبان

دجى موتى .. وقلبك لم يزل يخفق

وارضك عبر هذا الرمل ما زالت فراديس

عرائشها .. جداولها .. اغانيها

بيادرها .. تكاد الريح تذروها

صباياها وما ينسين من - ديوانك - الكلمه

وارضك تستظل النخل .. كم يشتاقتك النخل

وتكتئب القوانيس

فليل البعد يضيئها

ولا لقا .

عبد الصاحب الموسوي

بفداد

(1) رافق الشاعر الفقيد السياب في اخر ايامه في المستشفى

او يحرمها من الامتيازات التي تتمتع بها . اذا ، ما هو دور التنظيم السياسي ؟ ان دوره يخلص قبل الانتصار في تعبئة الجماهير للثورة وقيادتها الى النصر ، واختيار اللحظة المناسبة للثورة . اما بعد الانتصار فدور التنظيم هو حشد الطاقات الشعبية للقيام بالبناء الداخلي وانشاء اجهزة تنفيذية . وفي كلتا الحالتين يعمل التنظيم من اجل رفع المستوى السياسي للجماهير وافساح المجال للديمقراطية .

واذا كان العنف في كثير من الاحيان هو اللغة التي تستعمل مع اعداء الشعب كان الافناع والتعليم من خلال التجربة همسا الوسييلتان لكسب الشعب قبل الثورة وبعدها . فاعضاء التنظيم المشتركون في احدى النقابات مثلا عليهم ان يقتنعوا اعضاء النقابة بصحة سياسة التنظيم واكتساب خير العناصر واكثرها اخلاصا للتنظيم دون ان يشترطوا كون قادة النقابة من اعضاء التنظيم بالضرورة . كما يجب افساح الصدر لكل معارضة او نقد .

وهذا امر شديد الصعوبة ، كما ان الدوافع التي تجنبه كثيرة . منها اعتقاد اعضاء التنظيم انهم احق من غيرهم بالسلطة لانهم بذلوا جهودا وتضحيات لم يبذلها الآخرون . ومنها كذلك نشوء وهم انهم دانما على حق ما داموا قد انتصروا وبرهنت الايام على صحة موافقهم وسياستهم . وهذا يفري بادعاء الوصاية على الشعب . كما ان التنظيم - استسهالا للامور - قد يلجأ في فرض سياسته باستعمال اساليب القسر لتوفر ادواتها بدلا من الافناع والتثقيف . كما ان مركزهم المميز وتاريخهم الطويل الحافل بالكفاح والتضحية ، مضافا اليها وسائل القوة التي بين ايديهم تجعلهم قادرين على تشويه موقف كل معارض او منتقد - مهما كان باعث اعتراضه او نقده - والجهانه في النهاية الى ان يصيح اما عدوا كي يسهل مقاومته والقضاء عليه او ان يرغم على الموافقة دون اقتناع .

ان الاغراءات والدوافع للتخلي عن الديمقراطية وللجوء الى الديكتاتورية كثيرة ومتعددة . وهذا ما يسمى بانحراف الثورة .

يمكننا ان نلخص ملامح العلاقة بين التنظيم السياسي والحكومة بناء على ما تقدم ، فيما يلي :

اولا : علاقة التنظيم بالشعب وبكل منظماته واجهزته هي علاقة الاختيار الحر القائم على الاقتناع .

ثانيا : على التنظيم ان يتعلم من الشعب ، ومنح الديمقراطية هي الوسيلة الى ذلك .

ثالثا : على التنظيم السياسي ان يتحاشى الذوبان في جميع الاجهزة الوظيفية وان يحافظ على استقلاله . فلا يكون هدفه تحويل السياسيين الى فنيين ، بل على العكس من ذلك اذ يجب ان يعمل على تثقيف الفنيين وكسبهم الى جانب الثورة .

رابعا : قصر وظيفة الحكومة على تنفيذ المهمات الادارية وادانة كل اتجاه من جانب الحكومة للمتمالي على الشعب . فالسلطة التنفيذية هي اداة الثورة لا الثورة نفسها .

وهذا يستدعي تغيير وظيفة الحكومة من اداة قهر طبقي الى جهاز في خدمة الشعب . وهذا بالطبع سيؤدي الى تغيير شكلها وطبيعتها وجعلها تقرب من شكل وطبيعة التنظيمات الجماهيرية كادخال مبدأ الانتخاب بشكل تدريجي ، واضعين في الاعتبار ان مسارها النهائي هو تحولها الى هيئة ادارية ونزع كل قوى القمع والقسر منها - وهذا بالطبع سيكون بعد زمن بعيد .

ثم تأتي مشكلة كيفية تكوين تنظيم سياسي ما دامت الثورة في الحكم . وهذا يحتاج الى موضوع اخر .

غالب هلسا

القاهرة